تنمية القرآن الكريم للتفكير العلمي

د. محمد تمزغين
أستاذ محاضر بكلية العلوم الإسلامية- جامعة الجزائر 1

ملخص

للتفكير قيمة كبيرة في القرآن الكريم، حاول هذا البحث أن يبرز ذلك، مركزا على قضية جوهرية وهي: كيف نمى القرآن الكريم التفكير العلمي عند المسلم؟ متخذاً المنهج الوصفي في رصد صور ونماذج التدريب، والمنهجَ التحليلي في تناول تلك الصور بالتحليل والمقارنة، والكشف عن تأثيرها في إنتاج التفكير السوي. وقد عرّف البحث التفكير، وميّز بين العلمي منه والعامي، ثم أبرز كيف احتفى القرآن بالتفكير، حثا عليه بطرق متعددة، واستنكارا على إهماله أو إعماله في غير هدى. ثم بيّن صورَ تدريب القرآن للتفكير العلمي؛ بإبراز استعماله لطرق القياس والاستدلال والتمثيل، وبتدريب العقل على الاستقراء الذي يجمع بين النظر والواقع وبين الآفاق والأنفس والهداية، ووقوفا على سنن الأنفس وأحوال الأمم، وإعمال العقل في تَلَمّس حِكم الله مِن أقداره، والموازنة بين المصالح والمفاسد، وتلك هي أهم نتيجة وصل إليها البحث؛ بأن أبرز كيف يمكن للمسلم أن ينمي تفكيره ويسدده بالاهتداء بالقرآن الكريم.

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وزوده بالعقل وأنطق لسانه بالبيان، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء من أشاد بالتفكير والنظر وكان عنوان كمال الحكمة والإتقان. وبعد:

فللتفكير أهمية كبيرة في حياة الإنسان، وذلك من حيث إنه الوسيلة إلى التعامل الحسن مع الموجودات من حوله، احتكاما إلى قواعد المنطق ومبادئ العقل، ثم كشفا عن قوانين الخلق وسنن التدبير، واحتكاما إلى صريح النقل وحقائق الوحي، فذلك هو الدليل المرشد إلى حسن التسخير وكمال الترقي الحضاري، إضافة إلى أن بالتفكير يأتي الإبداع.

وإذا كان الحديث عن التفكير وعُلُوِّ شأنه، فليس كل تفكير موصلا إلى نتائج سليمة أو قَيِّمَة، فثمة تفكير علمي يأخذ بالقوانين والأسباب، وينضبط بمبادئ العقل ونتائج الخبرة الإنسانية، وثمة تفكير عامي لا يهتدي ولا ينضبط، بل حدوده الخبرة الحسية والآنية والفردية، منفلت من الضوابط والقواعد، وغالبا ما يكون مآله الخطأ والضرر ولو بعد حين.

ومع ما للتفكير من أهمية، فالذي يلاحظ واقع المسلمين، لا يجد تلك المكانة الحقيقية للتفكير، سواء في التعامل مع الحياة أو النظر إلى مبتدأ الإنسان وإلى مستقبله وفي مهمته الأساس في الحياة، بل إن نسبة معتبرة من المسلمين لا تكاد تجد لإعمال العقل موقعا في تصرفاتهم اليومية وتعاملاتهم الحياتية، بل غلّبوا منطقا آخر هو ما يقوله الناس أو ما تركه الأجداد، أو ما يزينه خطاب بعض الذين احترفوا الوصاية على الآخرين.

وبين هذا وذاك تجد بعضهم يجعل هذا الواقع هو الأصل؛ فلا تعمل عقلك فإن مآلك الارتياب في حقائق الدين، بل اترك منطق تفكيرك جانبا إذا قال الله وقال الرسول. ولهذا الواقع عوامل كثيرة، ومن تلك العوامل ما وقع فيه البعض الآخر من

انبهار بالغرب ومدنيته، فصار يرى أن الحق ما قاله الغرب، وأن التمسك بالدين والقيم المجتمعية تمسك بالتخلف والرجعية، ويستعير من تاريخ الغرب مقاربة لواقع المسلمين مُسقِطا ذلك على هذا حرفياً، فسبب تخلف المسلمين هو دينهم، ومن شاء حضارة فعليه أن يتنكر للوحي.

هذه المشكلة الواقعية ولّدت أسئلة متعددة، أبرزها ما يأتي: هل ديننا يمنع من التفكير ؟ أو يحتفي به ؟ وهل جاء القرآن بما يوافق العقول، ويبني عليها ؟ أو إنه غلب الناس بإعجازهم وألزمهم الاستسلام وكفى؟ وهل التفكير الذي يشيد به الغرب حاضرٌ في منطق الإسلام ؟ ولعل الإشكال في كيفية إعمال العقل لا في مطلق إعماله ؟

وبقراءة متمعنة في القرآن الكريم تلفى لهذه الأسئلة أجوبة محكمة: أن التفكير أساس، وأن له منزلة عالية في القرآن، وأن الأصل إعمال العقل. والأروع في الأمر أن القرآن يُنَمِّي ذلك ويجعله تفكيرا سديدا علميا يخدم حياة الإنسان ويورثه الجنان، ويجعله خليفة لله في الأرض. وأن العبرة هي بكيفية إعمال الفكر.

لذلك فقد تغيّر السؤال الجوهري للبحث ليصبح: كيف ينمي القرآن تفكير الإنسان ويجعله تفكيرا علميا سديدا ؟

وللوصول إلى جواب كاف عن هذا السؤال يحسن رصد تلك التوجيهات القرآنية وتصنيفها، وذلك بالمنهج الوصفي، ثم الكشف عن جوانب تنمية التفكير مِن خلال تلك التوجيهات الحكيمة، وذلك بالمنهج التحليلي.

وسيضم البحث مدخلا للتعريف بالتفكير العلمي، ومبحثين؛ الأول عن أهمية التفكير العلمي من خلال القرآن الكريم، والثاني عن تدريب القرآن للعقل على التفكير العلمي.

نسأل الله التوفيق في إبراز هذا الوجه من وجوه الحكمة القرآنية، وأن يُهَيِّئَ سبحانه للمسلم والأمة المسلمة أسبابَ إعمال العقول وتنميةِ التفكير، وتجنبِ الفتن، والترقي بالحضارة نحو الشهود الأمثل آمين.

مدخل

تعريف التفكير لغة واصطلاحا وفي الاستعمال القرآني

التفكير من مادة "فَكَر" وهي: لغة: مِن التأمل والنظر، يقول ابن منظور: "الفَكْرُ والفِكْرُ إِعمال الخاطر في الشيء"، وقال الجوهري: "التَّفَكُّر التأَمل"[1].

وأما في الاصطلاح فقد عرِّف تعريفات كثيرة لعل أوضحها تعريف فتحي جروان، يقول إن التفكير هو: "سلسلة مِن النشاطات العقلية التي يقوم بها الدماغ عندما يتعرض لمثير، يتم استقباله عن طريق واحدة أو أكثر مِن الحواس الخمس"[2]. فالتفكير حركة العقل في المعارف التي يتلقاها الإنسان عن طريق حواسه، تفسيرا وتحليلا ومقارنة ونقدا وتركيبا.

ولا يختلف عن ذلك تعريفُ التفكير في الاستعمال القرآني، فقد عرَّفه الراغب الأصبهاني فيقول: "الفكرة قوة مُطْرِقَةٌ للعلم إلى المعلوم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل"[3]، ونقل عن بعض الأدباء أن: "الفكر مقلوب عن الفرك، لكن! يُستعمَل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبَحْثُها طلبا للوصول إلى حقيقتها"[4]. ويعرفه ابن عاشور فيقول: "التفكّر: جولان العقل في طريق استفادة علم صحيح"[5].

---

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم المصري، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، دط، 1956م). ج 5، ص 65، مادة فكر.

(2) جروان، فتحي عبد الرحمن، تعليم التفكير، (الإمارات: دار الكتاب الجامعي، ط1، 1999م). ص33.

(3) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد خليل عيتاني، (بيروت: دار المعرفة، ط1، 1998م). ص386، مادة فكر.

(4) المصدر نفسه، ن ص.

(5) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ط1، 1997). ج7، ص244.

فالتفكير في عمومه: تأمل وتقليب نظر، وذلك بالترداد والمقارنة بين المشاهد والمعنوي، وبين المادي والروحي، للوصول إلى علم صحيح.

التفكير العلمي والعامي

هذا عن التفكير، وإذا وصفنا التفكير بالعلمي فالمقصود من ذلك هو الفصل بينه وبين التفكير العامي، بين تفكير منظم منضبط وبين تفكير ارتجالي غير منضبط، وهذا هو ما يؤدي إلى السلامة والصحة في التفكير العلمي، ويُجَنِّبُ العقل من الآثار السلبية في التفكير العامي، فالإنسان محتاج إلى تدريب عقله على التفكير الصحيح، وذلك مِن خلال الاستعمال السليم لقواعد العقل نفسه، فكل خروج عن تلك القواعد ينتج تفكيرا غير سوي، مثل إنتاج نتيجة من مقدماتٍ إنتاجا غير صحيح، فيعمِّم في غير محله، أو يلزم ما لا يلزم، أو يقرن ما لا يلزم قرنه. وقد يَرْجِعُ المشكل إلى المقدمات نفسها ومدى صحتها أو دقتها.

فالخلل في التفكير يرجع إلى سوء استعمال العمليات العقلية، أو نقص الدقة في المعارف والمقدمات التي يبنى عليها. وهذا هو ما يُبْعِدُ التفكير عن أن يكون علميا.

ويزداد الفرق وضوحا حين يكون التفكير في محله ومنتجا لحلول متوافقة مع الواقع والأمر، وبناء المواقف والتنبؤات على تلك النتائج.

فيمكن وصف التفكير بأنه علمي إذا سَلِمَت المقدمات وتَمَّ استعمال العمليات العقلية بطريقة سليمة، وتَوَجَّه التفكير إلى ما يمكن أن يثمر مواقف سليمة تنفع الإنسان وترقيه[1].

(1) انظر: الحدري، خليل عبد الله، منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، (مكة: جامعة أم القرى، 1422هـ). ص63.

وهذا ما ركّز القرآن الكريم على تنميته، فالتفكير مَلَكَة ينبغي على المسلم أن يُنَمِّيها، ويُوَجِّهَها لتُؤتِي أكلها، بما يتوافق وسنن الخلق، وبذلك يُرَقِّي حياة الإنسان ويدفعه نحو التحضر.

فما قيمة التفكير في القرآن الكريم ؟ وكيف نمى القرآن التفكير العلمي ؟

المبحث الأول

اعتناء القرآن الكريم بالتفكير العلمي

أولى القرآن الكريم اعتناء كبيرا للتفكير العلمي، وذلك مِن خلال الحثِّ عليه[1]، واستنكار تعطيله، وتحميل الإنسان المسؤولية في إعماله، كما وَظَّف طُرُقا متعددة لتفعيله.

أ. إحصائيات لموارد التفكير في القرآن الكريم

وبتتبع مفردات التفكير ومدى ورودها في القرآن يبرز هذا الاعتناء الكبير بالتفكير، فقد ذكر القرآن الكريم كلمة (العقل) 49 مرة، وكلمة (التفكر) 18 مرة، و(التذكر) أكثر من 200 مرة، و (التدبر) 4 مرات، و (النظر) 36 مرة، و(الفقه) 20 مرة، و(السمع) 102 و(البصر) 52 مرة، و(أولو الألباب) 16مرة، و(أولو النهى) مرتين، وكلمة (العلم) باشتقاقاتها وردت 582 مرة. كما ورد ذكر وسائل الإدراك في عدد كبير مِن الآيات بلغت 750 آية[2]، وهذا ما يبرز -كما يقول محمد المجالي- أن القرآن "كتاب مفتوح للناس أن ينهلوا منه ويتعلموا منه"[3].

(1) انظر: فاطمة، إسماعيل محمد، القرآن والنظر العقلي، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1993م). ص64-72.

(2) انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (بيروت: دار الفكر، ط2، 1981م).

(3) المجالي، محمد خازر، مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم، في مجلة الشريعة والقانون، (الكويت: كلية الشريعة والقانون، 2005م).ع23، ص29.

ب. ترغيب القرآن الكريم في التفكير والحثّ عليه

كما جاء الترغيب في التفكير، فيذكر تعالى:﴿لعلكم تتفكرون﴾ في أكثر من عشر مواضع في القرآن الكريم، وفي ذلك إرادة ورجاء مِن الله تعالى أن يتفكر الإنسان، يقول البقاعي: "ليكون حالكم حال مَن يُرجى أن يحمل نفسه على الفكر، ومَن يكون كذلك ينتفع بفكره"[1]. ويقول الآلوسي: "كي تتفكروا فيها، وتعتبروا بما تضمنته مِن العبر، وتعملوا بموجبها، أو لعلكم تُعْمِلون أفكاركم"[2].

كما كان تبيين الآيات في القرآن لأجل إعمال العقل والتفكير: فيذكر الله تعالى قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾، وفي ذلك يقول ابن عاشور: "وقوله (لعلكم تتفكرون) غاية هذا البيان وحكمته... لِيَحْصُل لكم فكر أي علم في شؤون الدنيا والآخرة"[3]. فلأجل أن تتفكروا نبين الآيات.

وكذلك تفصيل الآيات، يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾. يقول ابن عاشور: "أي مثل هذا التفصيل نُفَصِّل، أي نُبَيِّن الدلالات كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع... واللام في (لقوم يتفكرون) لام لِأَجْل. والتفكر: التأمل والنظر"[4]. فلأجل أن تتفكروا نفصل الآيات.

(1) البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1995م). ج1، ص433.

(2) الآلوسي، محمود شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دط، دت) ج3، ص38.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص354.

(4) التحرير والتنوير، ج11، ص114.

وقصَّ القرآنُ القصص، فقال عز وجل:﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾، يقول أبو السعود: "فاقصُص القصص راجياً لتفكرهم أو رجاءً لتفكرهم"[1]. فلأجل أن تتفكروا نقص القصص.

كما ضرب القرآنُ الأمثال[2]، كمَثَل الأعمى والبصير، فقال تعالى عَقِبَ ذلك: ﴿أفلا تتفكرون﴾، يقول الآلوسي: "(أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ)... ألا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون فيه! أو: أتسمعونه فلا تتفكرون !"[3]. ويقول الرازي: "والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين، وأن لا يكون غافلاً عن معرفته"[4]. فلأجل أن تتفكروا نضرب الأمثال.

بل كان إعمال العقل والتفكيرُ حكمة مِن حِكم إنزال القرآن الكريم، يقول عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44]. وفي هذا يقول ابن عاشور: "لعلهم يتفكرون: حِكْمَة أخرى من حِكَم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكّر الناس فيه وتأمّلهم فيما يقرّبهم إلى رضى الله تعالى"[5]. فلأجل أن تتفكروا أنزل المولى سبحانه الوَحْي.

---

(1) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دط،دت). ج3، ص294.

(2) انظر: النحلاوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، (دمشق: دار الفكر، ط1، 1979م). ص227.

(3) روح المعاني، ج7، ص156.

(4) الفخر الرازي، محمد بن عمر، مفاتح الغيب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط2، دت). ج6، ص294.

(5) المصدر نفسه، ج14، ص164.

ج. استنكار القرآن الكريم على من لا يفكر

كما جاء الاستنكار والتوبيخ على قلة التفكير[1]، فبَعْدَ بَيَان أنّ الله هو مَن يُؤتِي أنبياءَه الآيات أردف تعالى ذلك بالحث على التفكر في ذلك، فقال: ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ** ﴾ [الأعراف:184]، يقول ابن عاشور: "عَقَّب الإخبار عن المكذبين ووعيدهم بدعوتهم للنظر في حال الرسول، وأنه ليس بمجنون كما يزعمون... ألم يكونوا مِن المفكرين أهل النظر"[2].

ويستنكر الله تعالى الوقوفَ عند ظاهر الدنيا، والغفلة عن الآخرة، حَاثّاً خلقه على التفكر: ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الروم:8][3]، يقول الشوكاني: "أن أسباب التفكر حاصلة لهم، وهي أنفسهم، لو تفكروا فيها كما ينبغي"[4]. ويقول أبو السعود: "(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ) إنكارٌ واستقباحٌ لِقصَرِ نظرِهم على ما ذُكر مِن ظاهرِ الحياةِ الدُّنيا مع الغفلةِ عن الآخرةِ"[5].

د. الحوار النفسي الداخلي والجو المناسب مؤثران في تنمية التفكير

وقد جاءت العظة بالتفكر، وذلك بأن يُوَفِّر الإنسانُ الجو الصافي؛ ليلا وهدوءا وسميرا مناسبا، ثم يتفكر! فسيرى النفع ونهاية الأفق:﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن**

(1) انظر: عبيدات، عبد الكريم نوفان، الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، (عمّان: دار النفائس، ط1، 2000م). ص87.

(2) التحرير والتنوير، ج9، ص193-194.

(3) انظر: بدري، مالك، التفكر من المشاهدة إلى الشهود، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1992م).ص62-63.

(4) الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، (لبنان: دار ابن كثير، ط1، 1414هـ). ج4، ص248.

(5) إرشاد العقل السليم، ج7، ص51.

تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾ [سبأ:46]. يقول الزمخشري: "إنما أعظكم بواحدة، إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم، وهي أن تقوموا لوجه الله خالصاً، متفرّقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً، (ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ)"[1].

وإذا لم يجد الإنسانُ ذلك فالوحدة أحسن، يقول ابن عاشور: "الاستعانة أعون على الفهم، فيكون المراد دفع عوائق الوصول إلى الحق، بالنظر الصحيح الذي لا يُغالِط فيه صاحبُ هوىً ولا شبهةٍ، ولا يخشى فيه الناظر تشنيعاً ولا سُمْعَة، فإن الجماهير إذا اجتمعت لم يخل مجتمعهم مِن ذي هوى، وذي شبهة، وذي مكر، وذي انتفاع، وهؤلاء بما يلازم نواياهم مِن الخبث، تَصْحَبُهم جُرأة لا تَتْرُك فيهم وازعاً عن الباطل، ولا صدًّا عن الاختلاق والتحريف للأقوال، بعمد أو خطأٍ، ولا حياءً يهذبُ مِن حِدّتهم في الخصام والأذى، ثم يَطْيرُون بالقالة وأعمال أهل السفالة. فللسلامة مِن هذه العوائق والتخلص مِن تلك البوائق الصادة عن طريق الحق قيل هنا (مثنى وفرادى)، فإن المرء إذا خلا بنفسه عند التأمل لم يَرْضَ لها بغير النُّصْحِ، وإذا خلا ثاني اثنين فهو إنما يختار ثانيه أعلقَ أصحابه به وأقْرَبهم مِنه رَأياً، فسلم كلاهما مِن غِش صاحبه"[2].

كما يوجه الله تعالى إلى التأمل في النفس، والحوار مع القلب بحديث داخلي وجها لوجه مع الضمير، فذلك أدعى لسلامة التفكير وصوابِ النتيجة، يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ ﴾ [الروم:8]. يقول الزمخشري: "أولم يحدثوا التفكر في أنفسهم، أي

(1) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (بيروت: دار الفكر، دط، دت).ج3، ص294.

(2) التحرير والتنوير، ج22، ص233.

في قلوبهم الفارغة مِن الفكر، والتفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقولك: اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك"(1).

هـ. إيراد القرآن لنماذج التفكير السليم

ومما يبرز اعتناء القرآن الكريم بإعمال العقل أن ضَرَبَ لنا نماذج المتفكرين وما كان لتفكيرهم مِن ثمرات، فيقتدي الإنسان بهم رغبة فيما توصلوا إليه، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: 190-191].

يقول محمد عبده: "ربنا ما خلقت هذا باطلا: هذه حكاية لقول هؤلاء الذين يجمعون بين تفكرهم وذكر الله عز وجل، ويستنبطون مِن اقترانهما الدلائل على حكمة الله، وإحاطة علمه سبحانه بدقائق الأكوان، التي تربط الإنسان بربه حق الربط. وقد اكتفى بحكاية مناجاتهم لربهم عن بيان نتائج ذكرهم، وفكرهم، فَطَيّ هذه وذِكْرُ تلك مِن إيجاز القرآن البديع، وفيه تعليم المؤمنين كيف يخاطبون الله تعالى، عندما يهتدون إلى شيء مِن معاني إحسانه وكرمه، وبدائع خلقه، كأنه يقول: هذا هو شأن المؤمن الذاكر المتفكر، يتوجه إلى الله في هذه الأحوال بمثل هذا الثناء والدعاء والابتهال... فذكر الله حالهم، وابتهالهم، ولم يذكر قصتهم، وأسماءهم لأجل أن يكونوا قدوة لنا في علمهم، وأسوة في سيرتهم"(2).

كما أبرز القرآن النموذجَ السلبي للتفكير، وهو الوليد بن المغيرة، إذ كان عميق النظر دقيق التفكير، إلا أن الهوى هوى به في غير هدى، فترك حجة للناس على نفسه برفعه لمكانة القرآن، وكَشَف عن خبث نيته برفضه للحق الجلي، يقول عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ

---

(1) الكشاف، ج3، ص215.

(2) محمد عبده، تفسير القرآن الحكيم، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1990م).ج4، ص246.

فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدَّثر:19-26][1].

و. توظيف القرآن الكريم لأسلوب السؤال والاستقصاء لتنمية التفكير

إضافة إلى كل ما ذكر، فقد وَظَّف القرآن الكريم أنواع الأسئلة في حواراته وآياته[2]، ولعل مِن آثارها أن يُوَظِّفَها المسلم في تفكيره وفي حواراته وحياته، ومِن أبرز تلك الأسئلة السؤال بكيف كما في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: 20]، وفيه تركيز على النظر في البدايات، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ [الروم:42]، وفيه تركيز على الكيفيات، ولذلك أثره العميق في الاقتناع بجزاء الله وسننه.

ومن تلك الأسئلة السؤال بهل، كما في الآية الكريمة: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: 59-60]، والسؤال بالرؤية وإجالة النظر، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُون﴾ [الأنعام 47] وغيرها من الأسئلة التي تحرك التفكير في خلد الإنسان.

---

(1) انظر: حقي، إسماعيل بن مصطفى، روح البيان، (بيروت: دار الفكر، دط، دت). ج10، ص229-231.

(2) انظر: قلجة، ميساء، البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم، رسالة ماجستير، (غزة: الجامعة الإسلامية، 2009م). ص19-22.

ز. استعمال القرآن الكريم لأسلوب الحوار تدريبا للعقل على التفكير

كما وظّف القرآن الكريم أسلوب الحوار والمحاججة، وهو ما يُبنَى ابتداء على التفكير وصَقْلِه ليكون أقوى حُجَةً وأقومَ دليلا، وهذا ما يُقَرِّبُه إلى التفكير العلمي المُنْضَبط، إضافة إلى استعمال أسلوب المقارنة لينظرَ الإنسانُ إلى الأشياء بَحْثاً عن النظائر والأشباه، وهو ما يُولِّد المعرفة ويُطَوّر التفكير، ومِن أمثلة ذلك قوله عز وجل: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات:27-32].

يقول زكرياء بشير: "إن مِن أمْيَز خصائص التعبير القرآني أَخْذُه بأسلوب الحوار وبالجدل البناء، الذي يهدف إلى الحصول على الحقيقة، كذلك فهو يَتبَنى استراتيجية جدلية في إفساح المجال للرأي الآخر وإعطائه الفرصة الكافية للتعبير الدقيق والآمن عن هذا الرأي الآخر قبل أن يبدأ في الرد عليه...ردا موضوعيا رصينا فيُبَيِّن وجه الضعف فيه ويُقِيم البرهان الجاد على بطلانه، فلا يستهزئ به ولا يتجاهله أو يتهكم عليه"[1].

(1) زكريا، بشير إمام، أساليب الحجاج في القرآن الكريم، (الخرطوم: المركز القومي للإنتاج العلمي، دط، 1995م). ص9-10.

ح. تحذير القرآن الكريم من معيقات التفكير السديد

ومن تلك الجوانب التي تبرز قيمة التفكير العلمي تحذيرُ القرآن الكريم مِن التقليد[1] ومِن الظن المذموم[2]، وذم الهوى الذي يتحكم في الإنسان على حِسَاب عقله وضميره[3]، مُرَكِّزاً على البحث عن الأدلة والبراهين والتحقيق في القضايا[4].

ومن أمثلة ذلك مطالبة الآخرين بالدليل كما يقول عز وجل: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:111]، فأهل الكتاب لا دليل لهم على أن الجنة لهم دون غيرهم، فليأتوا بالدليل على الخصوصية، كما يقول تعالى للمشركين: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأنعام: 143]. والمطالبة بالدليل تدريب للعقول أن تتحقق وتُبْطِئَ في القبول.

فهذه جوانب تبرز اعتناء القرآن الكريم بالتفكير العلمي، وثمة جوانب أخرى كثيرة تزيد ذلك دلالة ووضوحا، ويمكن أن نُبْرِز ذلك مِن خلال تدريب القرآن للعقل على التفكير، باستعمال بعض المناهج العلمية في الوصول إلى إقناع الإنسان بمقاصد الوحي ومعانيه، ومجادلة المعاند وزيادة إيمان المؤمن، فهدف تدريب المسلم أيضا قائم في تلك النماذج وتتبع تلك المناهج.

---

(1) انظر: الحدري، منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ص303.

(2) انظر: الهيشان، محمود محمد، جوانب الفكر والتفكر في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، (إربد: جامعة اليرموك، 1996م). ص92.

(3) انظر: فاطمة، القرآن والنظر العقلي، ص104–108.

(4) انظر: زكرياء، أساليب الحجاج، ص21.

المبحث الثاني
تدريب القرآن للعقل على التفكير العلمي

استعمل القرآن الكريم كثيرا مِن الأمثلة التي تُظْهِر الاستدلال الذي يُبْنَى عليه التفكير العلمي، سواء أكان قياسا واستنباطا، أم استقراء أم تمثيلا. كما كان للموازنة بين المصالح مَوْقِع في تدريب القرآن للعقل على التفكير السديد الذي يجلب المصالح ويدفع المفاسد. ويمكن تتبع بعض الأمثلة، وكيف يمكن للإنسان المسلم أن يستفيد منها في تنمية تفكيره العلمي، فيما يأتي:

أ. تدريب العقل على القياس والاستنباط

فقد ذكر جَمْعٌ مِن العلماء والباحثين أمثلةً كثيرة للقياس والاستنباط، مثل ما ورد في محاورة سيدنا إبراهيم عليه السلام للملك الظالم؛ حيث أقام الخليل عليه الحجةَ بقياس بديهي، كما في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [البقرة:258].

وهو قياس مِن الشكل الأول مِن أشكال القياس عند المناطقة[1]، فالإله هو الفعال لما يريد، والقادر على كل شيء، ومِن قدرته التحكمُ في الشمس، ومِن إرادته أن يُطْلِعَها مِن المشرق، والله قادر على ذلك مريد، فهو إله، فهل أنت أيها الملك إذا أردت ذلك قادر على فعله ؟!

ومن ذلك محاورة سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه في عبادة النجوم والكواكب، إذ قال: ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ** ﴾ [الأنعام:76].

(1) انظر: زكرياء، أساليب الحجاج، ص47-49.

وهو قياس مِن الشكل الثاني، فالإله لا يغيب، فلا إله بغائب، ولكنّ الكوكب قد غاب، فالكوكب ليس بإله[1]. أي إن الإله هو الهادي في الظلمات، فإذا غاب فهدايته محدودة، وتعس إله لا ينفع عابده، ولا يهديه حين يكون عابدُه أحوج إليه! وهو قياس بديهي أيضا، يَدفع العقل إلى النظر في حياة الإنسان وتصرفاته مِن منطلق بديهي، يقضي على أي شبهة في صحة ألوهية الكواكب أو أي شيء يغيب.

ومِن الأمثلة التي وظَّفها القرآن الكريم على الشكل الثالث مِن القياس ما جاء عن اليهود؛ بإنكارهم أن يُنَزِّل اللهُ الكتاب على سيدنا محمدﷺ، فقد قال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام:91] [2].

فهؤلاء أنكروا أن يكون ثمة إنزال شيء مِن الله على البشر، وهم يؤمنون برسالة سيدنا موسىعليه السلام، فيجيبهم تعالى بمثال واحد يُبْطِل الكلية النافية، فموسى أُنْزِلت عليه التوراة بشهادتكم، وهو بشر، فإذاً قد أنزل الله على بشر وحيا! وإذا نزل الوحي على بَشَرٍ، فإنه يمكن أن ينزل على سيدنا محمدﷺ أيضا وحي مِن الله تعالى، وهو ما وقع.

ومما ورد مِن قياس التمثيل، ما جاء عن مقارنة عيسى عليه السلام بآدم عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران:59]، فمن استغرب أن يُولَد عيسى مِن غير أب فخَلْقُ آدم من غير أب ولا أم

(1) انظر: المرجع نفسه، ص49-50.

(2) انظر: المرجع نفسه، ص51.

أولى بالاستغراب، وقد خلق الله آدم مِن تراب ثم صَيَّره إنسانا، وكذلك خَلَقَ عيسى مِن أم فقط، فقال له كن فكان[1].

كذلك قياس إحياء الإنسان الميت بإحياء الأرض بعد موتها[2]، يقول عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:57].

فإحياء الأرض الميتة وإخراج الثمرات منها أمر واضح وجلي في صفحات الحياة، ومَن تَحَقّق مِن ذلك آمن بإمكان إحياء الإنسان الميت، لأن الأرض والإنسان سواء في الموت والحياة.

ويترقى القياس ليكون أولوياً، في المقارنة بين الأدنى والأَوْلَى[3]، في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:27-32][4].

فإذا كان إعادة خلق الإنسان معقَّدًا ومستغربا ومستحيلا في نظر الكفار، فإن خلق السموات والأرض أشد غرابة واستبعادا، وقد خلقهما تعالى وصَوّر ودبّر ومكّن، ومَن قدر على ذلك ألا يَقْدِر على خلق الإنسان ! أو بعثه مرة أخرى من جديد !

(1) انظر: الخازن، علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق: محمد علي شاهين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ). ج1، ص253.

(2) انظر: عبيدات، الدلالة العقلية في القرآن، ص464.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص466

(4) انظر: السمعاني، منصور بن محمد، تفسير القرآن، تحقيق: ياسر إبراهيم وغنيم بن عباس، (الرياض: دار الوطن، ط1، 1418هـ- 1997م). ج6، ص150.

وهو نفسه التدريب الذي يأتي في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس:81]، فمَن قَدَر على الخلق أولَّ مرة فهو على الخلق مرة ثانية أقْدَر، والخلق الثاني أهون مِن الخلق الأول.

ولعل في الأمثلة السابقة واضح الدلالة على تحفيز القرآن الكريم للعقل على التفكير العلمي، وضرب المثال والنماذج لتدريبه على إعمال العقل والتفكر والمقارنة والمقايسة، والانتقال مِن المشاهد إلى الغائب، ومِن الكل إلى الجزء، ومِن المثال إلى المماثل والأولى.

ب. تدريب العقل على الاستقراء والمقارنة

- تنمية التفكير الاستقرائي

وربما رَكّزَ هذا البحث أكثرَ على تدريب القرآن الكريم لعقل الإنسان على التفكير العلمي الرصين مِن خلال استعماله للاستقراء(1)، وهو منهج بارز يجمع بين الاستدلال المنطقي العقلي، والوقوف على عينات الحياة، وجزئيات الوجود، كما أنه ربط بين العقل والواقع، مما يُنْتِج معرفة واقعية تُثْمِر مواقف سليمة وجِدٍّ وحرص وعمارة للحياة وتحضر.

وإذا قلنا الواقع والموجودات فإننا نلتفت مباشرة إلى الآفاق والأنفس، وهو ما احتفى به القرآن الكريم أيما احتفاء، ووجّه الأنظار والعقول إلى تلمس المعرفة والوقوف على الدلالات، حتى تتحَوَّل تلك الموجودات إلى علامات على خالقها، وحكمته، وواسع علمه، وتمام قدرته، ولطف رحمته، ثم ينتقل العقل مِن ذلك إلى التسخير والتحضر.

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد التدريبَ العمليَّ للعقل في التعامل مع الموجودات، بالربط بين الآفاق والأنفس والهداية، انطلاقا مِن الآفاق إلى الأنفس،

(1) انظر: حنايشة، عبد الوهاب محمود، التفكير وتنميته في ضوء القرآن الكريم، رسالة ماجستير، (نابلس: جامعة النجاح الوطنية، 2009م). ص118.

ومِن الأنفس إلى الآفاق، ومِن عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومِن الآفاق والأنفس إلى آيات الوحي، في دائرة تشهد كل وحدة منها على الأخرى.

- تنمية الملاحظة العلمية والتنقيب

فمن ذلك توجيه الأنظار إلى الآفاق[1]، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [المُلك:4].

ففيه تحدّ للإنسان أن يجد خللا أو قصورا في خلق الرحمن، وذلك بأن يُجِيل النظرَ في الآفاق، فينظر، ثم يُرْجِع البصر في صغير الخلق وكبيره، ودقيقه وجليله، مُرَكِّزا على الأشكال والأحجام، والألوان والمكونات، والتناسق والتكامل، فهل يجد نقصا ! يجيب الله تعالى على ذلك بكل تحد وإعجاز للإنسان: لن تجد فطورا، وسيعود بصرك خاسئا حسيرا.

وذِكْرُ الكرتين لا يدل على عدد المرات بل على الاستمرار في النظر والرصد والترقب، وتلك عبادة قد نقص وجودها عند المسلمين، مع أنها تُورِثهم تسبيحا لربهم وتنزيها له عن النقص، وامتلاء للقلوب إعجابا بهذا الخلق وهذا الخالق، وملاحظة للرحمة تتدفق بين جنبات كل خَلْقِ الله، أليس هو الرحمن![2]

وهذا التوجيه إلى النظر لا يُقصَد به النظر والملاحظة فقط، بل الاعتبار والتحليل والمقارنة والاستنباط والتحقق، وكل ذلك عمليات معرفية عقلية يشملها التفكير العلمي[3].

---

(1) انظر: فاطمة إسماعيل، القرآن والنظر العقلي، ص132.

(2) انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، (بيروت ومصر: دار الشروق، ط17، 1992م). ج6، ص3632-3633.

(3) انظر: فاطمة إسماعيل، نفس المرجع، ص125-126

وينتج عن ذلك ربطٌ آخر بالغيب، وهو التيقن مِن كمال علم الله وقدرته، وكمال ملكه سبحانه، وذلك ما يثمر في الإنسان رشدا وكمالا.

- تنمية المقارنة والكشف عن العلاقات

وفي آيات أخرى يدرِّبنا القرآن الكريم على البحث في الكيفيات، والوقوف على دقيق الفروق واكتشاف القوانين والعلاقات المؤدية إلى التسخير، يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:17-20].

فقد ركّز التوجيه القرآني على كيفية خلق الإبل، وكيفية رفع السماء، وكيفية نصب الجبال، وكيفية تسطيح الأرض(1)، وكل توجيه مِن تلك التوجيهات حَقِيقٌ بأن يقوم علمٌ كامل يُجيب عن ذلكم السؤال. بل إنّ كل مسلم يدرس هذه العلوم لَيَشْعُر أنه يؤدي عبادة لله تعالى، واستجابة لندائه عز وجل، في كل جزء مِن أجزاء علمه.

ولئن كان القصد الأول مِن الآية هو الربط بين الغيب والشهادة، فإن مقدِّمَة ذلك وما يجعل الربط قويا محكما هو تحقيق ما توحي به الآيات؛ مِن الوقوف على الكيفيات، بما يجعل النظر والعقل يعملان معا ليصل الإنسان في الأخير إلى معرفة قوانين الخلق مِن جهة، ويعمل على حسن التسخير والخلافة مِن جهة أخرى.

- التدريب على تتبع مراحل التطور

ومن ذلك أيضا توجيه التفكير والنظر إلى حركة تكوين الأمطار، يقول عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:43].

(1) انظر: القاسمي، جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ). ج9، ص462.

ففيه نقل للأبصار مِن إزجاء السحاب، إلى التأليف بينه، ثم جَعْلِه ركاما؛ يخرج الودق مِن خلاله، كذلك إنزال البَرَد بكميات كبيرة كالجبال، مع اختيار مكان إنزاله بدقة، وفي كل ذلك عبرةٌ لأولي الأبصار[1].

والآيات كما تركز على كل مرحلة مِن تلك المراحل، فإنها أيضا توجه عقل الإنسان إلى تتبع المراحل نفسها والربط بينها لاستنتاج دورة المياه، مِن تشكلها إلى تسرُّبِها في الأرض والبحار.

والوقوف على تلك الجوانب، والتفكير فيها تفكيرا رصينا كما تُوَجِّه إليه الآيات هو الحقيق بتيسير تسخير ذلك الخلق للإنسان، وإصلاحِه بَدَل الإفساد[2]. وأمة يخاطبها كتابُها بهذا الخطاب ويُدَرِّب عقول أبنائها بهذا التدريب حقيقة بأن تكون أول مَن يُسَخِّر الخلق ويَصِل إلى التحضر والاستخلاف الحقيقي للإنسان.

-التدريب على المقارنة بين الآفاق والأنفس وآيات القرآن

ومن آيات الآفاق يُدَرِّب القرآنُ العقلَ على الانتقال إلى الغيب، وهذا ما يُوَجِّه إليه جوابُ الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم، فملاحظة الدقة والإتقان في الخلق، وملاحظة التناسق والتكامل والتدبير فيه مُرْشِدٌ إلى وجود مدبِّر حكيم، وخالق رحيم أوجدَ الخلق، يقول سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [إبراهيم:9-10].

فإذا استحال أن يكون فعلٌ بلا فاعل، وأثر بلا مؤثر، ولئن امتنع أن تجتمع أحرف فتشكل لِذَاتها كلمات، والكلمات تتشكل فتشكل بنفسها كتابا متقنَ الخطاب! فأن

(1) انظر: الخطيب، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن، (القاهرة: دار الفكر العربي، دط، دت). ج9، ص1299.

(2) انظر: فاطمة إسماعيل، القرآن والنظر العقلي، ص127-129.

يكون الكون بلا خالق رحيم، وأن يكون التناسق والتكامل بين الخلائق مِن غير إرادة ولا رحمة، أولى أن يكون كل ذلك مستحيلا. أفي الله شك ؟![1]

والذي يؤهل الإنسان للتحقق مِن ذلك هو إعمال عقله بالنظر والاعتبار بها في الآفاق، ورصد وإرجاع البصر كرات ومرات، فكلما أرجع بصره وأدار نظره وأعمل عقله في ذلك ازدادت كبرى اليقينيات الكونية يقينا في نفسه.

كما يدرب القرآنُ العقلَ على الانتقال مِن آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فالإنسان المُفَكِّر هو الذي يربط بين ما حوله مِن أمور، فالذي يرى في الخلق الكمالَ والرحمةَ، ثم يلتفت إلى نفسه فَيَجِدُها بلا نظام ولا ضابط، يَسْتَغْرِب أن تبقى تلك النفس نشازا في كل ذلكم النظام المتقن !

بل إن الإنسان المتأمل في أحوال نفسه يرى أن جوانب مِن حياته منتظمةٌ دقيقة لا يَندّ عنها شيء، فكل إنسان يبدأ نُطْفَة فعلقة فمضغة فعظاما، ثم يَخْرُج إلى الحياة، ثم ينتقل مِن ضعف إلى قوة، ثم مِن قوة إلا ضعف، ثم إلى فناء، وكل إنسان له جسم مُكْتَنِزٌ بالأجهزة التي تعمل بانتظام ودقة محكمة، فهل يمكن أن يبقى الإنسان سدى بلا هدف ! وهو في نفسه مرهون بنظام يُسَيِّر الكثير مِن جوانب حياته!

وهذا ما تشير إليه آيات القرآن الكريم وتُحَرِّك العقل إلى أن يُفَكِّر ويتأمل: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة:36-39].

فثمة تَدَرُّج في الخلق وتحوّل، في مسار مُحَدَّد، دالٍّ على إرادة قدّرَت ذلك واختارته، وثمة اعتناءٌ بالإنسان منذ أن كان نُطفة إلى أن صار مُكتملا، وكل ذلك مُرْشِد إلى مَلِكٍ منان، وحِكمَة في الخلق وامتحان[2]، ومَن قدر على ذلك الخلق، فهو قادر على الخلق ثانية، ومَن يسّر كل ذلك ودبّر، فلا يُعْقَل أن يَتْرُك خلقه بلا تقويم وحساب وجزاء!

---

(1) انظر: الآلوسي، روح المعاني، ج13، ص195.

(2) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج9، ص272.

إنه تدريب للعقل على الانتقال مِن الآفاق إلى الأنفس، ومِن الأنفس إلى الغيب.

وهو ما يشهد به أولو الألباب أي العقول المستنيرة، يقول عز مِن قائل: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران:190-191][1].

فهؤلاء قد وقفوا على الحقائق فعرفوا أن كل هذا الخلق لا يمكن أن يكون باطلا بلا حكمة[2]، وأن الإنسان جزء مِن هذا الخلق، وتكامل الخلق معه بَيِّن، فلا يُمْكِن أن يَمْضِي بلا حكمة، بل ثمة أحكام وقيم، وثمة جزاء وتقويم لكل ما أُمِدّ به الإنسان.

- تنمية التفكير بالكشف عن القوانين والسنن في الأنفس

ومن المجالات الكبرى التي درب القرآنُ العقلَ بها على التفكير العلمي عالمُ الأنفس، باستقراء الجزئيات والوقوف على السنن الحاكمة لها[3]، نجد هذا ماثلا في الكثير من تعقيبات القرآن على قصص السابقين، فلم تكن تلك القصص عَرْضاً لما جرى فحسب، بل كانت رصدا للقوانين، وتدريبا للعقل على أن يحتكم إلى تلك السنن[4].

---

(1) انظر: زكرياء، أساليب الحجاج، ص71. وانظر: يعقوبي، محمود، خلاصة الميتافزياء، (الجزائر: دار الكتاب الحديث، دط، 2002م). ص97.

(2) انظر: الحدري، منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ص114

(3) انظر: القرضاوي، يوسف، العقل والعلم في القرآن، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م). ص273.

(4) انظر: أبو جحجوح، يحيى، عمليات التعلم ومهارات التفكير المستنبطة من القرآن الكريم، في: مجلة الجامعة الإسلامية، (غزة: الجامعة الإسلامية، 2011م). مجلد 19، عدد1، ص289-290.

وفي ذلك يصف عماد الدين خليل القرآنَ بأنه: "قدم في هذا الصدد أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، ينتقل مِن مُجرد العرض والتجميع، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية"(1).

ويمكن تناول مثالين لتدريب العقل على ذلك فيما يأتي:

المثال الأول: استقراء أحوال الأقوام السابقين والوصول إلى اطراد السنن

فقد عدّد الله تعالى مثلا في سورة الذاريات ما وقع للأقوام السابقين؛ مِن بعث الرسل وتكذيب الأقوام وجزاء التكذيب، مع اختلاف في ذلك الجزاء وصوره، لكن عوامله كانت تتكرر كل مرة مع رسول مِن الرسل.

فبعد أن يُقْسِم الله عز وجل بالذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات، يُجيبُ عن القسم بقوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾، فالدين أي الجزاء واقع لا محالة(2)، وما يعد ويتوعد به المولى على لسان رسوله صادق(3)، لكن الكفارَ عن ذلك معرضون، وفي قولٍ مختلِف؛ في هذا الوحي وهذا النبي: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾، فيقولون: ساحر كذاب، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم يذكر تعالى الجزاءَ الأخروي لمن آمن ومَن كفر، مع تَوَسُّع في ذكر صفات المؤمنين، بعدها يُبيِّن أنّ في الأنفس والآفاق آيات أفلا يبصرون ويوقنون، ثم يذكر أحوال الأمم السابقة بعد تبشير سيدنا إبراهيم بالمولود الجديد.

(1) خليل، عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ، (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1983م). ص8.

(2) انظر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرون، (المدينة: دار طيبة، ط4، 1417هـ/ 1997م). ج7، ص371.

3 أشار الرازي بأن فعل "تُوعَدُ" يضم معنيين: وعد، وأوعد. وإن كان الثاني هو المقصود مع المنكر. انظر: مفاتح الغيب، ج28، ص168.

فيقول سيدنا إبراهيم للملائكة المرسلين: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ والقصد هو تعذيب قوم لوط: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾، فبدأ بذكر قوم لوط، وهو النموذج الأول، ثم ثنّى بفرعون وقومه، فقال عز مِن قائل: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾، ففي موسى وفرعون آيات واعتبار، ونصَّ القرآن على جواب فرعون بأن قال لموسى ساحر أو مجنون، وما كان مِن جزاء ذلك(1).

بعدها أورد جزاءَ عاد وثمود: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾، ثم قوم نوح قبل هؤلاء، كانوا عبرة وآية على ثبوت الجزاء والدين: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

ثم بعد ذكرِ قصص السابقين أورد دلائل السماء والأرض، ثم جاء الإنذار: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، بعدها يعقب القرآن ذلك بخلاصة الاستقراء: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾، إنه كلما جاء رسول بما جاء به الرسل مِن قبله -حتى خاتم الأنبياء- إلا قابله نفسُ الموقف مِن قومه: ساحر أو مجنون، فإما مخادع ماكر وإما أبله معتوه(2).

ويقف القرآن وقفة هنا عند ذلك فيسأل مُسْتَحِثّاً العقل للتفكير: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ!﴾ لا يمكن ذلك ! فقد فني الأقوام، ولم يبق إلا مَن قد آمن بالرسل! فما السبب ؟ وهنا

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج4، ص403.

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج27، ص23.

تظهر السُنّة، ويَتميّز القانون، إن السبب أمر سنني فطري لا علاقة له بالتواصي بالسوء، إنه الطغيان: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾، فالطغيان هو السبب في الإعراض، مع تكرر نفس الأمر كل مرة مع رسول مِن الرسل، سنة متكررة[1].

وبعد اتضاح ذلك يُوَجِّه اللهُ تعالى نَبيه إلى أنّ مُهمتَّه هي التذكير بأمهات الأمور، وستمضي السُنَّة لا تحيد، ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾.

وإذا كان الظالمون لم يعتبروا بما حدث لمن سبقهم حتى أعادوا نفس الموقف وساروا في نفس السَّنَن، فستنطبق عليهم القاعدة بتحقق شروطها، فإن لكل واحد منهم جزاءه مثل جزاء مَن سبقه، تحقيقا للسُنَّة﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات][2]. وذلك دليل آخر على ثبوت الجزاء وصدق الوعد به.

إنه تتبع لأحوال الأقوام؛ رَصْداً لمواقف وأسباب ونتائج، تتكرر مُشَكِّلَة سُنَّة مُطَّردة، ووقوفا على العامل الحقيقي في تكرر السُنّة، ثم بعد ذلك يتوعد القرآنُ الكفارَ بأن السُّنَةَ لن تتأخر، ما دامت أسبابها متوفرة. وهذا مثال لتدريب العقل على الاستقراء، والوقوف على العوامل الحقيقية، وملاحظة القانون في جزئيات متعددة، ثم الاستفادة مِن ذلك في اتخاذ الموقف الأنسب؛ تحويلا مِن سُنَّة الهلاك إلى سُنّة التحضّر والحياة.

---

(1) انظر: الزمخشري الكشاف، ج4، ص405.

(2) انظر: الزمخشري، المصدر نفسه، ص ن.

المثال الثاني: استقراء التدابير في حياة الناس والوصول إلى لطائف القدر الرباني

والمثال الثاني لتدريب القرآن للعقل على التفكير العلمي نجده في قصة موسى والعبد الصالح. فهذا سيدنا موسى عليه السلام يبحث عن أعلم أهل زمانه، فيُرْشِده تعالى إلى عبد صالح، يَصِفُه تعالى فيقول: ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾، وبعد أن يتفق معه سيدُنا موسى على طلب العلم منه ينطلقان، وتبدأ رحلة التعلم، كما تبدأ معه عملية تدريب العقل على التفكير في مجال حيوي مهم.

والله تعالى يضرب لنا نماذج فقط، فهؤلاء فقراء يملكون سفينة؛ هي مصدر معاشهم، لكنّ العبدَ الصالح لا يلبث أن يَخْرِقها: ﴿ **فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا** ﴾، وهذا إفساد لا يُرضي اللهَ عز وجل، وذلك ما أزعج النبيَّ الكليم! ثم ينطلقان مرة أخرى فيلتقيان بولد كامل الحياة، فيزهق العبدُ الصالح روحَه: ﴿ **فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ** ﴾، وذلك منكر لا يُمْكِن السكوتُ عنه أو تركه، وهذا هو موقف موسى عليه السلام.

ثم مرة ثالثة يَمُرَّان عابرَيْ سبيل على قرية، فلا يستضيفهم أحد بشربة ماء أو مذاق، ولكنّ العبد الصالح يَجِدُ جدارا يكاد أن يَنْقَضّ، فيُجْهِد نفسه - وموسى معه- في إقامة الجدار، بلا مقابل يطلبه مِن أهل القرية ﴿ **فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ** ﴾، وذلك أيضا موقف يستفز الكليم عليه السلام.

ومواقف موسى مِن أعمال العبد الصالح تُنْهِي عملية التعلم التي اشترط لها الصبر، فيُخْبِرُ العبدُ الصالح بحقيقة ما وقع: ﴿ **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ**

تَحۡتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴾ [الكهف: 82]

إن ملاحظة تلك التصرفات لَتُنَبِّئُ بالكثير الكثير مما يمكن استفادته، فثمة منكر وإفساد في الأرض، وهو أمر واقع في الحياة، ولكنه ليس منكرا مطلقا ولا شرا محضا، بل هو لدفع شر أعظمَ منه أو جلب نفع أكبرَ منه، فخَرْقُ السفينة تضييع لرزق الفقراء ظاهرا، لكنه حِفْظٌ له في الواقع، وقَتْلُ الولد إفساد في الأرض وإحزان لوالديه، لكنه دَفْعٌ لحزن أعظمَ عنهما؛ بأن لو بقي الولد وكَبُر لعَقَّهُما وأفسد وعَرْبَد، وإقامة جدارٍ تَعَبٌ لعابر سبيل لم يُكْرِمْه القوم، لكنه في الحقيقة حِفْظٌ لمال يتيمين، ليأخذاه بعد حين.

وما كان للسفينة أن تُحْفَظ لولا إفساد جزء منها أي خَرْقِها[1]، وما كان للوالدين أن يَسْعَدا لولا قَتْل ولدهما وإن كان ضررا لهما[2]، وما كان لليتامى أن يغنما مالهما؛ لولا مشقة وقعت على عابر سبيل[3].

إن هذه الأمثلة لَتُوقِف العقلَ المسلم أمام تدبير الله عز وجل، تدبيرٍ للكون والحياة، فيه النفع والضر، لكنه تدبير رحيم بالإنسان؛ يكتب عليه مِن الشر ما يعود عليه بالخير الأعظم منه، والخير فيما اختار الله تعالى. ولا يلزم حضورُ العبد الصالح لِتَجْرِيَ تلك التدبيرات في الحياة، فقد يكون الضرر مِن ظالم؛ ومَآل ذلك النفع للإنسان، وقد يكون الخير مِن عابر سبيل لا علاقة للناس به، ليقضيَ الله أمرا كان مفعولا.

بل إن الأمثلة لتبرز أن تدبير الله للحياة كله خير، وتدبيره لحياة الإنسان المؤمن الصالح أكثر رحمة وخيرا، وذلك جزاء بالإحسان للإحسان.

---

(1) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، (مصر: مطابع أخبار اليوم، دط، 1997م). ج14، ص8968.

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص13.

(3) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، (مصر: دار الفكر العربي، دط، دت). ج9، ص4570.

إن هذه الأمثلة لَتُبَصِّر العقل بيد الله الحانية، كما تُدَرِّبه على التفكير في لطائف أقداره، وحكيم تدبيره، ورحيم اعتنائه، وهو كذلك فتح أفق واسع للعقل؛ أن يتجاوز الظاهرَ ليغوص في أعماق الغيب، جامعا بين الغيب والشهادة، فيزداد علما، ويزداد لربه قربا، وللكون تسخيرا، ولتطور حياته تدبُّرًا، ولمسار حياته تخطيطا.

- تنمية تفكير المقارنة والموازنة

وإذا تبيّن ما سبق مِن تدريب الله عز وجل بالقرآن الكريم للعقل على التفكير في الآفاق؛ تَعَرُّفًا على القوانين وتسخيرا، وعلى التفكير في الأنفس؛ اعتبارا ووقوفا على السنن وتخطيطا للحياة، إضافة إلى التفكر في أقدار الله وتدبيره الأحسن للإنسان، وللمسلم أكثر. فإن في القرآن أيضا تدريب آخر للعقل على التفكير العلمي مِن خلال الموازنات بين المصالح والمفاسد.

نجد هذا التدريب ماثلا في أحكام شرعية تكشف عن اللطائف في التشريع، وتُدَرِّب العقل على الموازنة والترجيح، وتؤهله لتدبير شؤون حياته بما هيأ الله له مِن عقل، وما درَّبه عليه مِن منهج تشريعي فريد.

ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك ما ورد في حكم الخمر والميسر وكفالة اليتامى والقتال في الشهر الحرام.

يقول تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة:219-220]

والتفكر في المصالح والمفاسد يورث الإنسانَ بُعْدَ نظر، ويُوقِفُه على ما يُقْدِم عليه مما يَذَر، فالخمر والميسر وإن كان فيهما منافع، إلا أن مفاسدهما أعظم، وإصلاح مال اليتيم وإن كان فيه الحرج، فترك إصلاح ماله أشد مفسدة.

يقول ابن كثير عن الخمر والميسر: "لكن هذه المصالح لا توازي مضرّته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين"[1]. ويقول الشوكاني:"(وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا) أخبر سبحانه بأن الخمر والميسر، وإن كان فيهما نفع، فالإثم الذي يلحق متعاطيهما أكثر مِن هذا النفع؛ لأنه لا خير يساوي فساد العقل الحاصل بالخمر، فإنه ينشأ عنه مِن الشرور ما لا يأتي عليه الحصر، وكذلك لا خير في الميسر يساوي ما فيها مِن المخاطرة بالمال، والتعرض للفقر، واستجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء، وهتك الحرم"[2].

وعن اليتامى يَصِفُ الله تعالى ذلك بقوله: ﴿إصلاح لهم خير﴾. وفي سبب نزول الآية يقول ابن عباس: "لمّا أنزل الله عز وجل (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) و (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) الآية انطلق مَن كان عنده يتيم، فعزل طعامه مِن طعامه، وشرابه مِن شرابه، فجعل يَفْضُل مِن طعامه فيُحْبَس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم)، فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه"[3].

وفي هذا يقول أبو حيان: "إصلاح الولي لليتيم، ومخالطته له خير لليتيم مِن إعراض الولي عنه، وتَفَرُّدِه عنه... أي: في رعاية المال وغيره خير مِن تَحَرُّجِكم"[4].

---

(1) ابن كثير، إسماعيل أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الأندلس، ط8، 1986م). ج1، ص453.

(2) فتح القدير، ج1، ص235.

(3) رواه أبو داود، كتاب الصيام، باب مخالطة اليتيم في الطعام، رقم 2871، ج2، ص127. قال الألباني: حسن. وأورده ابن كثير في التفسير، ج1، ص344.

(4) أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، اعتنى به زهير جعيد، دار الفكر، بيروت، 1992م، ج2، ص354.

وقبل هاتين المقارنتين، نجد الله عز وجل يقول: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾. [البقرة:217].

فقد قاتل بعض المسلمين في الشهر الحرام خطأ فعاب الكفارُ ذلك على الرسولﷺ، فجاءت مقارنة القرآن في هذا الموضع: بأن القتال في الشهر الحرام كبير. وحين نقارن ذلك بالكفر بالله والصد عن سبيله وإخراج أهل المسجد الحرام منه، فأيهما أشد وأكبر ؟ إن الثاني أشد وأكبر، بل إن الذي حَرَّم الشهر الحرام هو الذي أنزل هذا الدين، فإن صددتم عن سبيله وكفرتم به وأخرجتم أهل المسجد الحرام منه، فهل أنتم تراعون حرمة هذا الرب!![1]

هذه هي المقارنة: كبير وأكبر. وهو تدريب للعقل المسلم أن يميز بين المفاسد فيدفع الأشد بالأهون، وينظر إلى الأشد أكثر مِن نظره إلى الأدنى منه.

والله تعالى إذ يذكِّر بالتفكر في الدنيا والآخرة، ففي سياق ذكر المقارنة بين القتال في الشهر الحرام وبين الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام أيها أشد فتنة ومفسدة، والخمر والميسر؛ أيٌّ مِن الإثم والمنفعة فيهما أكثر، واليتامى بين تجنب مالهِم خشيةَ التعدي عليها، وبين إهمال اليتامى، وأي الأمرين أشد ضررا، وكذا ما ورد بعده مِن الزواج من المشركين؛ بين العبد والأمة المسلمة، وبين الحر والحرة المشركين، أيهما أنفع وخير، وكلها مقارنات بين المصالح والمفاسد، ما يفتح للإنسان باب التفكر والنظر، ويُوقِفه على الموقف الأحسن عقلا وشرعا.

وهذا مِن أوجه المقارنة التي يدعو إليها اللهُ تعالى ويوجه إلى التفكير فيها، بين الوحي وبين الحياة، بها يظهر قيمة الوحي وصلاحيته للحياة.

(1) انظر: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق إبراهيم أطفيش وأحمد البردوني، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، 1964م). ج3، ص46.

فهذه بعض الأمثلة التي تهيئ العقل ليقوم بالتفكير العلمي السديد، فينظر في المصالح والمفاسد ويراعي أيها أكثر وأقرب وأنفع وأدوم، فيجلب المصالح ويدرأ المفاسد، ويدرأ الأشد بفعل الأدنى ويترك الأدنى من المنافع طلبا للأكثر.

خاتمة

في نهاية هذا البحث يحسن ذكر أبرز النتائج المستخلصة منه وهي ما يأتي:

1. التفكير تأمل وتقليب نظر، وذلك بالتردد والمقارنة بين المشاهد والمعنوي، وبين المادي والروحي، للوصول إلى علم صحيح. ووصف التفكير بأنه علمي إنما يكون بسلامة المقدمات واستعمال العمليات العقلية بطريقة سليمة، وتوجّيه التفكير إلى ما يمكن أن يثمر مواقف سليمة تنفع الإنسان وترقيه.

2. اعتنى القرآن الكريم بالتفكير العلمي وأولى له أهمية كبيرة، وذلك مِن خلال ترغيب الإنسان في التفكير والحثّ عليه، وبتبيين الآيات وتفصيلها، وقص القصص، وضرب الأمثال، حتى إن إعمال العقل يعتبر مقصدا مِن مقاصد إنزال القرآن الكريم.

3. استنكر القرآن الكريم على مَن لا يفكر، وحذّره مِن معيقات التفكير السديد؛ كالتقليد والظن المذموم وذَمَّ الهوى، وطَالَبَ بالدليل، مُوَجِّهاً الإنسانَ إلى الحوار النفسي الداخلي، واختيار الجو المناسب لِمَا لذلك مِن أثر في تنمية التفكير.

4. وظّف القرآن الكريم أساليب كثيرة في تنمية التفكير؛ كالسؤال والاستقصاء والحوار، مع إبراز نماذج التفكير السوي والسقيم.

5. درَّب القرآنُ العقل على التفكير العلمي، وذلك بتدريبه على القياس والاستنباط، باستعمال أشكال القياس الأربعة عند المناطقة، وقياس التمثيل؛ مساو وأولوي.

6. كما درَّبه على الاستقراء والمقارنة، بتنمية الملاحظة العلمية والتنقيب، وتنمية المقارنة والكشف عن العلاقات، وعلى تتبع مراحل التطور، وعلى المقارنة بين الآفاق والأنفس وآيات القرآن.

7. ومِن أبرز نتائج البحث إبراز كيفية تنمية القرآن للتفكير بالكشف عن القوانين والسنن في الأنفس، من خلال استقراء أحوال الأقوام السابقين، والوصول إلى اطراد السنن، وباستقراء التدابير في حياة الناس والوصول إلى لطائف القدر الرباني، وبتدريبه على المقارنة والموازنة بين المصالح والمفاسد.

والبحث يرجو المزيد من الكشف عن هذه الوجوه والكيفيات حتى يمكن أن نستثمر القرآن الكريم في تنمية التفكير، وتوجيه الفرد المسلم والأمة المسلمة، والقيام بواجب الخلافة وحفظ الأمانة، انطلاقا مِن التفكير السليم.

المصادر والمراجع

- الآلوسي، محمود شهاب الدين، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دط، دت).
- بدري، مالك، **التفكر من المشاهدة إلى الشهود**، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1992م).
- البغوي، الحسين بن مسعود، **معالم التنزيل**، تحقيق محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، (المدينة: دار طيبة، ط4، 1417هـ/ 1997م).
- البقاعي، إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1995م).
- جروان، فتحي عبد الرحمن، **تعليم التفكير**، (الإمارات: دار الكتاب الجامعي، ط1، 1999م).
- الحدري، خليل عبد الله، **منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم**، رسالة دكتوراه، (مكة: جامعة أم القرى، 1422هـ).
- حقي، إسماعيل بن مصطفى، **روح البيان**، (بيروت: دار الفكر، دط، دت).
- حنايشة، عبد الوهاب محمود، **التفكير وتنميته في ضوء القرآن الكريم**، رسالة ماجستير، (نابلس: جامعة النجاح الوطنية، 2009م).
- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق زهير جعيد، (بيروت: دار الفكر، دط، 1992م).
- الخازن، علي بن محمد، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تحقيق: محمد علي شاهين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ).

▪ الخطيب، عبد الكريم يونس، **التفسير القرآني للقرآن**، (القاهرة: دار الفكر العربي، دط، دت).

▪ خليل، عماد الدين، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1983م).

▪ أبو داود، سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الفكر، دط، دت).

▪ الدغامين زياد، **تفعيل وسائل الإدراك في الإنسان ومنهج القرآن في توظيفها**، مجلة دراسات، علوم الشريعة والقانون، (الأردن: الجامعة الإردنية،2004م).

▪ الرازي، محمد بن عمر، **مفاتح الغيب**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط2، دت).

▪ الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق محمد خليل عيتاني، (بيروت: دار المعرفة، ط1، 1998م).

▪ زكريا، بشير إمام، **أساليب الحجاج في القرآن الكريم**، (الخرطوم: المركز القومي للإنتاج العلمي، دط، 1995م).

▪ زكرياء، فؤاد، **التفكير العلمي**، (الكويت: عالم المعرفة، دط، 1987م).

▪ الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (بيروت: دار الفكر، دط، دت).

▪ أبو زهرة، **زهرة التفاسير**، (مصر: دار الفكر العربي، دط، دت).

▪ أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دط،دت).

▪ السمعاني، منصور بن محمد، **تفسير القرآن**، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، (الرياض: دار الوطن، ط1، 1418هـ- 1997م).

▪ الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، (مصر: مطابع أخبار اليوم، دط، 1997م).

▪ الشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، (لبنان: دار ابن كثير، ط1، 1414هـ).

▪ ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ط1، 1997).

▪ عبد الباقي، محمد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (بيروت: دار الفكر، ط2، 1981م).

▪ عبيدات، عبد الكريم نوفان، الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، (عمّان: دار النفائس، ط1، 2000م).

▪ فاطمة، إسماعيل محمد، **القرآن والنظر العقلي**، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1993م).

▪ القاسمي، جمال الدين، **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ).

▪ القرضاوي، يوسف، **العقل والعلم في القرآن**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م).

▪ القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق إبراهيم أطفيش وأحمد البردوني، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، 1384هـ/ 1964م).

▪ قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، (بيروت ومصر: دار الشروق، ط17، 1992م).

▪ قلجة، ميساء، **البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم**، رسالة ماجستير، (غزة: الجامعة الإسلامية، 2009م).

▪ ابن كثير، إسماعيل أبو الفداء، **تفسير القرآن العظيم**، (بيروت: دار الأندلس، ط8، 1986م).

- الكردي، راجح عبد الحميد، **نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة**، (الرياض/ مكتبة المؤيد، ط1، 1992م)
- المجالي، محمد خازر، **مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم**، في مجلة الشريعة والقانون، (الكويت: كلية الشريعة والقانون، 2005م).
- ابن منظور، محمد بن مكرم المصري، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، دط، 1956م).
- النحلاوي، عبد الرحمن، **أصول التربية الإسلامية وأساليبها**، (دمشق: دار الفكر، ط1، 1979م).
- النسائي، أحمد بن شعيب، **المجتبى من السنن**، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط2، 1406هـ/ 1986م).
- الهيشان محمد، وملكاوي محمد، **منهج القرآن في تنمية التفكير**، مجلة أبحاث اليرموك، (إربد: جامعة اليرموك، 2002).
- يعقوبي، محمود، **خلاصة الميتافزياء**، (الجزائر: دار الكتاب الحديث، دط، 2002م).